الشاعر بين تساؤلاته الذاتية وحوار الحضارات

بالأمس جورج شحادة، واليوم صلاح ستيتية. والجائزة هي الأهم في ما تمنحه الأكاديمية الفرنسية. أمّا مستحقها فهو «شخص قد ساهم مساهمة فعّالة في ذيوع اللّغة الفرنسية».

عاشق للّغة الفرنسية، متمكّن من صرفها ونحوها وبُناها وتراكيبها، متوغّل في أعماقها، متلذّذ في عجنها وقولبتها ونقشها وصوغها: لوحاتٍ فسيفساء من حضارات الشرق والغرب، ودواوينَ شعر تتشكّل من مقاطع وقصائد تراوح بين سديمية القول وبدائيّته وهندسيّته، ونثراً هو من عيون الشعر وعنه، يحلّق في فضاءات إبداعه، ويغوص في خلفيات تكوّنه وتجسُّده، ويحمّله مهمّة التساؤل ورسالة الإجابة.

ذاك هو صلاح ستيتيّة: سحر الكلمة، قدرة القول، تفتُّح الآفاق، وحوار الحضارات. كان ذلك دأبه منذ بداياته مع الكتابة الصحافية، وكان ذلك رهانه منذ تأسيسه للملحق الأدبي لجريدة **لوريان** الذي حمل عنوان **لوريان ليتيرير** (L'Orient Littéraire)، ولعب دوراً كبيراً كوسيط بين المواهب الشابة في الغرب عموماً وفرنسا على وجه الخصوص، وبين انبثاق أنماط جديدة للكتابة والتفكير في لبنان والعالم العربيّ والشرق. ثم أضحى ذلك همّه وحرفته في مساهماته الموزّعة على أهمّ المجلاّت الأدبيّة والفكرية الفرنسية. واستمرّ، ومايزال، علّة وغاية لكلّ ملامح إنتاجه الإبداعي: من شعر ونقد ومقالة وترجمة ورواية وسيرة ذاتية.

وسيط هو إذن: بين مختلف الأنواع الأدبية، بين الماضي والحاضر والمستقبل، بين الشرق والغرب، بين لغات شتى وحضارات مختلفة، بين السؤال والجواب، بين المعنى و«ما وراء المعنى». إنّه دائماً في لحظة الغسق، في تلك الساعة الغسقية التي نستطيع أن نتبيّن فيها - كما يقول القرآن الكريم - الخيط الأبيض من الخيط الأسود. تلك الساعة هي الحاملة لكلّ آمالنا، والضامنة لكلّ إمكانيات المعرفة، والمبشّرة بكل نور الفجر وبهائه.ولكنها أيضاً لحظة نكون فيها متأرجحين مترنّحين بين اللّيل والنهار، بين ما قبل وما بعد، بين الحضور والغياب، بين المرئيّ والمحجوب، بين الوجود والعدم، بين السؤال والجواب.

تُطرح هنا بشكل تلقائيّ مسألتان: الهويّة والمعرفة.

الهوية والشعر

انتماء يقارب حالة الوجد والذوبان، وتحرّر من كلّ أشكال التعصّب والتقوقع والقيود. تلك هي ازدواجية الهوية عند صلاح ستيتية، وذلك هو - في وجهيه المتناقضين والمتكاملين - ما يؤكّده على الدوام، وما يختصره في قول ينقله عن الأديب الفرنسي پول ڤاليري: «يختلف البشر بما يُظهرون، ويتشابهون بما يُخفون».

إنّه ذو هويّة مركّبة: لبناني عربيّ مسلم متوسطي شرقي فرنسي... وفي ذلك كلّه الإنسان.

لبنانيّ هو أوّلاً وأخيراً. ألم يفترض أن الجائزة لم تُمنح له فقط، بل مُنحت أيضاً لوطنه؟ «هذه الجائزة شرف لي وللبنان»، تلك كانت ردّة فعله الأولى على إعلان الجائزة، ثم أضاف: «أظن أنّ مفهوم الجائزة ومردودها من شأنهما أن يوضحا أكثر فأكثر الصورةَ الحضارية اللبنانية في الظروف الراهنة... ولا شكّ أنّ فكر لبنان وإبداعَه لهما صوت مسموع في العالم بصورة عامّة وفي فرنسا بصورة خاصّة».

سفيرٌ هو للبنان. ولكنّه لم يكتف بمناصبه ومهمّاته الديبلوماسية المتلاحقة بل صمّم على أن يكون صوتاً حضاريّاً وإنسانيّاً لبلده، صوتاً يتّصف بتواضع العلماء والمثقّفين إذ يقول: «قد يكون هناك [إضافة إلى جورج شحادة وفؤاد غبريال نفاع وجبران خليل جبران وعمر أنسي] رسّامون وشعراء، كثيرون آخرون نسمّيهم ونحبّهم، بين الأحياء والأموات، بين أولئك الكثيرون ممّن يعبّرون مباشرة عن عروبتهم ويتوجّهون إلى عموم العالم العربي، وبين أولئك البعضُ ممّن يصوغون، بلغة "الآخر"، وطناً روحانياً يحملونه معهم بصورة عضوية في ترحالهم. إنّني واحد من أولئك "المهاجرين"، ولكوني كذلك، فلقد اختبرت طويلاً في داخلي الازدواجية، بل التناقض الذي هو الركيزة الأساسية لتأمّلي بالأوالية الثقافية لبلدي».

ترتكز تلك الأوالية على طبيعة هذا البلد:

«لبنان هو حكاية صخرة وسماء شاسعة.

وتلك السماء الأخرى المنعكسة: البحر.

اللبناني مزروع هنا، في نوع من توازن مختلّ.

بين اللبنانيّ وبلده منظومة من علاقات معقّدة: الحبّ والرفض: وكل تناقضاتها.

لبنان - تلك الصخرة - لا يسمح لنفسه أن يُحصر بين تَينك الذراعين اللتين تحاولان إطفاءه: إنّه يهرب منّا وينطوي على ذاته، قلباً غامضاً كتوماً.»

هذا الوطن الساكن، شعراً وأساطير ورؤى وحنيناً ووجداً، في قلب الشاعر ووجدانه، والرابض، بلسانه العربيّ وملامحه العربيّة الشرقيّة، فوق معالم حضارات تلاحقت وتفاعلت على هذا الشاطئ المتوسّطي، هذا الوطن يجد له، «بعروبته الأساسية» و«متوسطيته»، «بخصوصيته، بل بخصوصياته التي يحدث أحياناً كثيرة أن تنمو بعيداً عن موطنها الأصلي»، منازلَ ومعاقل،

بالفرنسية، في أدب ستيتية. واحد من أحدث كتبه في المقالة، **لبنان الجمع** (Li-ban Pluriel) يحاول أن يرى «بصورة مباشرة أو غير مباشرة خصوصيات هذا البلد – وأن يعرضها للفهم». والخصوصيات، إضافة إلى الجغرافية والتاريخية والميتولوجية، بل تجسيداً لها، خصوصيّاتٌ ثقافية نتلمّس ملامحها من خلال جبران وجورج شحادة وفؤاد غبريال نفاع وعمر أنسي... وقدموس وأخته أوروبا.

والهويّة هنا تضحي هوية المنفى المزدوج: منفى الأرض ومنفى اللّغة. في أتون ذلك المنفى يستعاد الوطن حنيناً ومعنى، يستعاد لبنان «الواقع بين البحر والجبل، بين أوروبا وآسيا، ذلك البلد المنبسط شاسعاً تحت اتّساع الأفكار، والذي تعصف به رياح الفكر الأربع». يفتّش «المهاجر» عن ركيزة يستند إليها، فيجد أسطورة ولغة.

أما الأسطورة فتُستحضر من اسم أوروبا التي يجد بينه وبينها صلة رحم، بل يجد نوعاً من الأخوّة: «ولكن قدموس هنا: مصاباً بالحمى. عليه أن يقتل تنّين المظاهر ويقتل بعد ذاك المظاهر المنبثقة، مدجّجة بالسلاح، من أنياب التنّين». قدموس التجريد، قدموس الألفباء، وقدموس علم الجبر. ينطلق هذا القدموس المثلّث القدرة الشعريّة ليهاجم بها قوى الظلام الذي تحاصره بأسئلتها المحيّرة: «من أنت؟»، «من نحن؟»، «أين نحن؟»، «إلى أين أنت ذاهبٌ؟».

وأمّا اللّغة فهي لغة «الآخر»، اللّغة الفرنسية التي يجهد – وينجح – في أن يستحوذ عليها ويتملكها، بل أن يجعلها معشوقته، مسكنه وسكينته. «نحن لا نسكن وطناً، بل نسكن لغة». يقول هذا، ثم يضيف: «الشاعر، كإنسان منفي، هو في منزله أنّى ارتحل، حتى وإن كان منزلاً لا يوجد في أيّ مكان. يكفيه أن يحمل معه كل أراضيه، وأن يجرّ وراءه كل أوطانه. وإذا ما انتمى إلى لغة فإنّه يكتفي، للهروب من منفاه، بأن يستريح لوهلة في تلك اللّغة، على طريقة المرتحلين».

قد نكون أوشكنا أن نعطي فكرة مجتزأة – بل مشوّهة – عن أديبنا المهاجر. ولكن الصورة لم تكتمل بعد؛ فلنستمع إليه يكمل حديثه بعد نيله الجائزة:

«إنّني أفتخر أن أكون نجحت إلى حدٍّ ما في التعبير، بلغة راسين وفيكتور هوغو، عن معان وأبعاد مرتبطة بالفكر العربيّ القديم والحديث، وصولاً إلى أسمى ما ينجبه الوعي والإبداع الفرنسيان». ثم يضيف بعد أن يبيّن أهمية معنى الجائزة في خضم الصراع الدامي الدائر حالياً في فرنسا مع بعض التيّارات الأصولية الإسلامية أنّه يعتبر نفسه «محاوراً أساسيّاً بين الحضارتين». وهذا ما تؤكّده جريدة **لوموند** التي تطلق عليه تسمية «الموفّق بين حضارتين».

نكتفي للدلالة على ذلك باستعراض عناوين أغلب كتبه المخصّصة للمقالة الأدبية: **حَمَلة النار** (Les Porteurs de feu)– عن شعراء الحداثة في العالم العربي، **أور في الشعر** (Ur en poésie)؛ **الليلة الحادية** (La Unième nuit)؛ **فردوس** (Firdaws)؛ **الرامي الأعمى** (Archer aveugle)؛ **رحلة حلب** (Le voyage d'Alep)؛ **السبعة النيام** (Les Septs dormants)؛ **نور على نور** (Lumière sur lumière).

أمّا **حَمَلة النار** الذين هم أدونيس وبدر شاكر السيّاب (وقد ترجم لهما ستيتية إلى الفرنسية) ومحمود درويش وأنسي الحاج ومحمد الماغوط وخليل حاوي وفدوى طوقان وطلال حيدر وعبد الوهاب البياتي وشوقي أبي شقرا وغيرهم، فإن ستيتية يقدّمهم إلى قارئ الفرنسية بقوله: «حملة النار، أعني تلك النّار التي تلحم المبعثَرَ أو تُعيد لحمه»؛ والمبعثر هو «السديم البدئي» و«العناصر الداخلية والخارجية، الذاتية والموضوعية» التي يمتلك الشاعر مفاتيحها الخفية. ولكنّ النار التي يحملها شاعر الحداثة العربيّ ليست مصباحاً أو مصهراً فحسب؛ إنها نار تحرق الشاعر المدجّج والمجرّد من سلاحه في «معركته الكبرى ضد أشكال وقوى»، معركة يصرّ فيها على أن يكون له قول. «والقول ليس مجرّد سلسلة من الكلمات. إنّه كلام ينتزع من الأعماق ويملأ في الإنسان فراغاً – غياباً يقظاً وقلقاً. وطموح الشعر العربي في أيّامنا أن يجد، خارج معطيات التاريخ وحتميات المكان، سبيلاً إلى ذلك الفراغ وجسداً لذاك الغياب».

صلاح ستيتية هو، بداهة، واحد من هؤلاء الشعراء العرب، يحمل الهوية نفسها ويحترق بالنار نفسها، إضافة إلى المنفى المزدوج الذي يعيشه. وله أيضاً هوية ورسالة إسلاميتان. لنستمع إليه في **نور على نور**: «لقد حصل تشويه منهجيّ لصورة الإسلام من قبل كل من وجد مصلحة في ذلك. منذ اليوم أضحى تصحيح تلك الصورة واجباً على المسلمين أوّلاً، وعلى الآخرين ثانياً. إن الإسلام بعيد عمّا يحاول البعض أن يصوّروه: هذا ما يجب قوله وكتابته... يجب أن نقول ونكتب أن أهمّ كلمة في الإسلام بعد **اللّه** هي كلمة **السلام** التي تنتمي إلى الجذر اللغوي نفسه لـ**الإسلام**، والتي هي أيضاً واحد من أسماء الله الحسنى».

«انتشار اللّغة الفرنسيّة» الذي كافأته الأكاديمية المانحة للجائزة، هو في الوقت ذاته انتشار، في كل كتاب وحتّى في كل صفحة، لمفاهيم وميادين من الحضارة العربية – الإسلامية: من القصيدة الجاهلية إلى الشعر الصوفي عند جلال الدين الرومي والحلاج والخيام، إلى أدب عصر النهضة، وصولاً – كما أسلفنا – إلى الشعر الحديث ومرتكزاته العامّة والخاصّة.

وحوار الحضارات هذا يجد له ساحة مثلى ورمزاً وتجسيداً في صورة المتوسّط: **المتوسّط الخلاق** (كما يقول عنوان كتاب مشترك)، **المتوسط الأسود** (عنوان عدد خاص لمجلة **ابوري** Aporie عن صلاح ستيتية) **المتوسّط تكسر وتساقل** (مجلة **إمكوم** Imcom)، و«المتوسط الأبيض» القائم في العديد من المقالات والكتب والمرسّخ للتسمية العربية. هذا المتوسط ليس فقط ساحة اتّصال – دموي أو حواري – بين شرقه وغربه، شماله وجنوبه، إنّه أيضاً فلسفة. «فلسفتي أمام العالم هي فلسفة متوسطيّ متمسّك بمساطة الأشياء الأكثر عفوية وبساطة للاطلاع على سرّها – إذا كان هناك من سرّ. هذا السرّ (وهنا يلتقي المتوسّط – عبر إيلوزيس كمدينة وأسطورة – بالشرق الخائف من الموت والمؤمن بالبعث) هو في الوقت ذاته رائق وأسود: إنّ العالم قوّة ليس للإنسان فيها مكان إلاّ من خلال انتمائه الفعليّ للمدى الكونيّ التائق إلى الخلاص عبر الإنسان تحديداً – لكونه الوحيد المتمتّع بقدرة على تحويل لغته، بالشعر، إلى قول».

الشعر والمعرفة

في كتاب **ليل المعنى** الصادر بالعربية ويحمل عنواناً بديلاً هو «مواقف وآراء في الشعر والوجود» يجيب صلاح ستيتية على

شعر ستيتية فسيفساء من الأسماء والحضارات والموضوعات والصور تتنافر وتتجاور لتشكّل مادّةَ قولٍ جديد يفتّش عن «بابل» حديثة تلتقي فيها الألسنُ لتبني مجد الكلمة وتعمل على إحلال الحوار نهجاً للتعامل بين الشعوب.

أحد أسئلة جواد صيداوي بقوله:

«ما الإنسان، في الواقع، سوى بوتقة تنصهر فيها جميع العناصر التي تكوّن منها، أي الإنسان الطبيعي، والبيولوجي، والتاريخي، والاجتماعي، والمهني، إلخ. حيث تجد بين هذه العناصر جميعاً الإنسانَ غير المرئيّ، وهو الإنسان الأساس، الإنسان الكلّي، إنسان الروح. ولم يكن بالمستطاع أن نعبّر عن الروح إلاّ بواسطة اللّغة، فإنّ الإنسان اللّغوي هو ذلك الإنسان/الظلّ المرتبط في الوقت نفسه بالإنسان الروحي والإنسان التاريخي المعبّر، خلال التاريخ وخلال وجوده - الآن وهنا - عن معنى حصل عليه باللّغة نفسها».

بعد ذلك يضيف: «إن أقصر طريق للتعبير عن هذا الإنسان اللّغوي، المطلّ على الإنسان الروحي والإنسان التاريخي، هو الشاعر. فالشاعر هو الواقف وراء هذا الإنسان الكلّي على شفير الهاوية، ملزماً نفسه بتلك المخاطرة الوجودية».

ليس الشعر إذن بالترف، وما هو من كماليات الأدب. إنّه موقف ورسالة، بل هو تحقيق للذّات الكليّة من خلال الذات اللّغوية. ولكن تحقيق تلك الذات ليس بالأمر اليسير؛ فالشعر يسكن دوماً على حدود المتناقضات، يسكن بحذر وقلق وترقّب، يتّخذ لنفسه مكان إقامة في ساعة الغسق، يتربّص هناك مفتّشاً عن قبس من معنى بين ليل لم ينته أفولاً وفجر لمّا يبدأ انبلاجاً.

هناك تبدأ المسيرة الشعرية، من غياهب الغموض والالتباس والريب والبلبلة والتشوّش والسديم والخواء، من عتمة اللّيل وبرده ووحدته وشهوانيّته... وصوفيّته. إذاك ينظر الشاعر حوله فلا يكاد يتبيّن شيئاً، وكأنّما كلّ ما يحيط به خارجٌ من حريق كاسح، فينطلق الشعر على أنقاض احتراق المظاهر وترمّدها، ليبني واقعاً جديداً تجسّده لحظة رؤية، بل ومضة، بل إشراق.

«إذا ما استطعنا أن نسكن في ومضة، فنحن في قلب الأبدية». قال ذلك رينيه شار ويردّده بلا كلل صلاح ستيتية. فهو مقتنع بأن الشاعر لن يلتقط، في أحسن حالاته، سوى ومضات تشعّ في دياجير الغموض والإبهام، تشعّ قبل أن تعود الظلمة - مزدوجة هذه المرّة: ظلمة ما قبل وظلمة الانبهار من برق يخطف البصر - لتلفّ الكون من جديد. ونكتشف أنّ ساعة الغسق تغدو لحظة عطوبة يتمّ خلالها اختطاف للمعرفة - وانخطاف بها - بين ليل وليل. «من الليل إلى الليل تعدو رعشة القول - رعدته».

في هذا السياق تندرج دواوين صلاح ستيتية بعناوينها المعبّرة: **الماء البارد المحروس، انقلاب الشجرة والصمت، الوجود الدمية، اليمامة الكاسرة، غيمة ذات أصوات، معترضات، الوجه الآخر المحترق للكامل النقاء**، وبتلخيص كل ذلك بعنوان **أجزاء: قصيدة**.

في أوج احتراق المظاهر يشعّ الكلام شعراً. فكم من حضور يتأكّد ويترسّخ عند الغياب. لقد كانت القصيدة العربيّة التقليدية «تستحضر [من خلال الوقوف على الأطلال] كلية الحضور عبر انعطاف لافت نحو الغياب شبه الكامل». تضيف هذه التقنية شبه العفوية في الشعر العربي القديم توكيداً جديداً لقناعة ستيتية بأنه «من الرماد إلى اللّهب تنطلق مسيرة الشعر». «أليس الرماد عودة إلى حالة الطبيعة، عبر دروب الموت القسرية، حيث ينبعث، من خلال الأحلام والتأمّلات المبدعة، تعبير عن الحبّ هو دون شكّ حالة الثقافة الأكثر اكتمالاً؟».

عبر الليل والنّار ودروب الموت يقوم الشعر بمساءلة الأشياء عن أسرارها والإنسان عن نفسه والوجود عن كنهه. تتم المساءلة وتُلتقط ومضاتٌ أجوبة تصاغ في «أجزاء قصيدة». ولكن دهشة الشاعر - والقارئ - تزيد حين يكتشف أنّ الجواب ما هو إلاّ سؤال جديد وأن طريقاً طويلاً مازال يفصلنا عن «ما وراء المعنى» الذي هو شبيه بقولنا «ما وراء البحار».

الشعر ميدان اختبار. والحديث عنه ميدان تأمل وتفكير. في ميدان الاختبار تُجرَّب تقنيات ووسائل وأدوات عديدة ومتنوّعة، تجرّب لعلّها تساعد في سبر أغوار الواقع وآفاق الخيال، ولعلّها تستطيع الولوج في «ليل الذاكرة»، متخطّية حدود الزمان والمكان، لتبلغ من ذاكرتنا الجماعية، من تاريخنا المشترك، من الباطن الذي يفضي إليه كلّ ظاهر، مدىً تنبت فيه الإجابة واقعاً تتجاور فيه وتتحاور لغات وثقافات وحضارات، ويشعّ اللّيل فيه ببريق الكلمة البكر وألقها وبهائها.

«لتولدْ دمعة من الغبار ومن الرّمل ومن الرماد. هكذا يصبح الجدب فينا، الذي هو قدر كوكبنا الآتي، مُلامَساً بجناح إنساني يجعل منه للحظة ابناً للفكر».

فسيفساء الشعر والصورة

أصبح من الواضح أن شعر ستيتية، ومجمل أدبه، يبنى على تجاور المتناقضات والأضداد وتساكُنِها وتَفاعلها. ذلك أنّ ميادين اختباره لا تقبل الصور التقليدية والقوالب والأشكال المعهودة. ففي بحثه عن «ما وراء نور القول» يختبر كلّ ما تقع عليه الحواس أو يقع في الفكر والإحساس. وإذا كانت مادّة الشعر، بالنسبة إلى الكثيرين، تتمثّل في كوكبة الصور المتمحورة على الذات، من مشاعر وأحلام وحنين، وإذا كان الشعر يروي ذلك أو يصوّر ملذّات النفس وعذاباتها، فإنّ ذلك يضحي مجرّد «حكاية». أما الشعر عند ستيتية فله - كما رأينا - مهمّة أبعد من ذلك بكثير. إنّه مختبر الأشكال والأنواع والصور. ولا يعني ذلك أبداً أنه مصهر تمتزج فيه العناصر لتنتج مادّة جديدة - بالرغم من إعجاب الشاعر وتأثّره بالخيميائيين الذين يبحثون عن حجر الفلاسفة وبالصوفيين الذين ينشدون الحلولية. إن ما يسعى إليه هو دواوين وكتب مقالة يشكّل كل واحد منها لوحة فسيفساء تتجاور فيها وتتفاعل وتتكامل قطعاً فنيّة وفكرية وثقافية ذات مصادر شتّى وهويّات محدّدة. إنّه «حوار حضارات». وكما أنّ «كل ثقافة هي حلم بالوحدة وبحث عن الوحدة»، فإن «كل حوار يحلم بالوحدة».

فسيفساء من الأسماء: «ذاك هو اللّيل يعلو في صوت هولدرلين أو نوفاليس، جون كلار أو مجنون ليلى، نرفال - وأيضاً هيراقليطس؛ جلال الدين الرومي

- وأيضاً شكسبير؛ **الف ليلة وليلة** - وأيضاً بورخيس». لكلّ من هؤلاء صوته وهويّته، مهما وجد بينهم من قواسم مشتركة، «فالمتشابه ما هو بالهوية، والهوية ليست للمتشابه... إنّ خلاص الجميع، الخلاص الروحاني والأخلاقي، يمرّ عبر الهوية المميّزة لكلّ منها».

وفسيفساء من الحضارات الشرقية والغربية، القديمة والحديثة، تتداخل إنجازاتها الفكرية والثقافية والفنيّة وتتمازج، محتفظة كلّ منها بخصوصياتها ومميّزاتها.

وفسيفساء من الأنواع والموضوعات يتشكّل منها نسيج كلّ واحد من كتبه، إذ يضمّ أحدها -Le Nibbic- على سبيل المثال أربع عشرة مقالة تراوح بين «دائرية القول العربي» و«وصف مهاجر»، و«الملح الآخر»، و«بدر، في موته»، و«فلاح في إقطاعة»، و«مانديارغ»، و«موقع أدونيس» والمتوسط، إلخ...

وفسيفساء من الصور الأدبية المبنية على الطباق أو الإرداف والتي يضجّ بها شعره ونثره، على مثال «اللّهب الأسود» و«الصفاء المظلم» و«الغياب الحاضر» و«شمولية حضور العدم» و«المرتحل الباقي»، و«اللاأحد» و«اللامرأة» و«اللاموت»... واللائحة هنا لا تنتهي.

فسيفساء من كلمات وصور تغلي، تتدافع، تتنافر وتتجاور وتتصاحب لتشكّل مادة قول جديد يتّجه عكس التيّار مفتّشاً عن بابل حديثة تعود الألسن لا لتتبلبل، بل لتلتقي فيها وتتفاهم وتبني مجداً لكلمة، مجد الإنسان المنفتح على حضارته وعلى ثقافة الكون الفسيح، والعامل على إحلال الحوار نهجاً للتعامل والتفاهم بين الشعوب.

نعود إلى الليل:

«إن الجانب المظلم الكائن في اللّغة هو جزء الليل الكامن في الإنسان. شاعر هو ذاك الذي يحاول، بتلمس أعمى، أن يقرّب اللّيل من اللّيل وكأنّه يجمع بين تنفسين. عودة إذن إلى التنفّس العاشق، تناغم وتداخل النَفَسين ليصبحا، واحدهما والآخر، واحدهما في الآخر، نَفَساً وحيداً. ولكن عملية الشعر ليست سهلة، ولا هو بالسهل ذاك الميزان التنفّسي».

صلاح الفاسي!...

جواد صيداوي

قاس صلاح ستيتية في شعره الماسي.

قاسٌ على نفسه وقاس على قارئه.

إنه يتجنّب المعنى القريب، وإن كان ذا بُهرج ليذهب بنا، عميقاً، في رونق الليل، وفي أغوار النفس المظلمة - المضيئة، ليقبض، بعد العناء العذب، على الجوهر المشعّ ببراءة الطفولة وطهر الوجود.

إنها الأصالة بمرتقاها الصعب.

«إذا كنت تريد النور- يقول جلال الدين الرومي- فاجعلْ نفسك لائقة بالنور.»

وإذا كنت تريد الشعر، يقول صلاح ستيتية، فاسْمُ بنفسك إلى ملكوت الشعر.

لماذا هذا العناء كلُّه؟

ما جدوى هذا الألم المرصّع بالشبَق؟

وما جدوى تلك النشوة المسكونة بالموت؟

إغراء الخلود؟

هداية الروح إلى نور ذاتها؟

اختراق الحجب، جميع الحجب، بومضة إشراق واحدة؟

بلوغ الإنسان غير المرئي، الإنسان الكلّي، إنسان الروح؟

إنّها الغباوة بعينها. الغباوة القدسية الخلاّقة.

يقول المتنبّي: سبحان خالق نفسي كيف لذّتها

في ما النفوس تراه غاية الألم

إنّه السعي الأزلي، نفسه، إلى «أن نكون أو لا نكون»، السعي العنيد الجامح إلى ترياق الألم: الم المعاناة، والم الأرق.

«إنّ جميع الأساطير، إذا كانت عظيمة، جميلة، وراسخة في نظامها الكوكبي، إنّما تولد في الليل، فهي مواليد الأرق. فحين يكون النعاس قد ملأ بعلفه اسطبلات العالم وحظائره، يلمح ذلك الأرق، المجافيه النوم، نغماً خفيفاً يلوح كجرح في بلّور الوقت، ثم يعظم، يتقدّم حتى لحظة اللاتوازن المباغت، في قمّة الظلمة القائمة، وحتى الانفجار الرائع: هذا المطر من الدمع!».

يقول صلاح ستيتية في حديثه عن جورج شحادة: «هذا المطر من الدمع.. أيّ أرض سيوقظ؟ وأيّ الرغبات يلبّي؟»

الجواب نجده في آثار الشاعر. فلو نحن تعمّقنا تلك الآثار تعمّقاً دقيقاً لوجدنا ملامح التراث العربي - الإسلامي نابضة بزخمها، كلِّه، في شعره وفي نثره على حدّ سواء. وهذا ما أشار إليه نجم الدّين بامات في قوله: «.. وصلاح ستيتية بصفته رجلاً من حوض المتوسّط، نراه يستعين، في كتاباته، بكل موارد اللّغة، من الشرق ومن الغرب، في آونة واحدة. من الغرب تأتيه جميع مزايا الإبداع الكلاسيكي، باللّغة الفرنسيّة، والمتراكمة خلال قرون متعاقبة، مع القواعد الصلبة لتلك اللّغة. ومن الشرق، من اللّسان العربي القديم، تأتيه، عن وعي منه أو عن غير وعي، كنوز سرية الألوان، محفوظة بعناية فائقة، من الإبداع الكلاسيكي، والقواعد اللغوية التي لا تقلُّ صلابة عن تلك».

وبعد

هنيئاً لصلاح ستيتيه جائزة الفرنكفونية الكبرى

إنه لجميل أن ينال مبدع من مبدعينا مثل هذا التكريم الرفيع من الآخرين. ولكن الأجمل ألاّ يأتي تكريمنا نحن لمبدع من مبدعينا مجرّد صدى لتكريم الآخرين له.

أيّها الشاعر الصديق

لقد أتعبتنا، قبل خمس سنوات، يوم جئت تحدّثنا عن قرود الروح الذين يدنسون براءة الوجود وطهارته، وعن السعي الدؤوب والشاق لبلوغ جوهر الأشياء، وعن خبط أقدام الجند الزاحفين، تحت نصر، ليستلوا «الماء البارد المحروس»، ويأخذوه. لماذا لا تدعنا وشأننا؟. لماذا لا تدعنا في انخذالنا العذب؟. لماذا لا تدعنا نتسابق إلى كسب مرضاة الغاصب، غاصب الأرض والتاريخ، غاصب الماء البارد المحروس والماء الحارّ المباح في آنٍ معاً؟.

أيّها الشاعر الصديق

وإنّنا لفرحون، اليوم، بما تحمل إلينا من تعب جديد يوقظ، في أعماقنا، هذا السبات الكئيب. فالشعر ثورة أو لا يكون، وإننا الغاوون!..